المتنبي إمام العصر الإسماعيلي للإسلام
إيحاءات حول قرمطية المتنبي!!

المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون

أن النصوص العربية للمؤلفين الإسماعيليين القدماء المعثور عليها حديثاً في سورت وبومبي ضمن مجموعات خاصة من قبل السيدين أيفانوف Ivanov والهمداني Hamadani تجعلنا نفهم بصورة أفضل المظهر المزدوج للقرن العاشر في الشرق: هذا القرن الرابع للإسلام، الذي سماه ميتز «نهضة». نهضة، من وجهة نظر الفلسفة والعلم العتيق، بحق (ولكن بدون الفنون) -، وبتعمق أعظم، تلوين جديد للعاطفة الدينية المسلحة التي هي في الوقت نفسه ساخطة ومشوهة إلى حد التجديف وذلك بمذهب متمسح اجتماعي، ناجم من هذه الصيغة الثورية للمشروعية الاسماعيلية إبان القرن الرابع الهجري، المستهل بإعلان الخلافة الفاطمية في المهدية، والمختوم بالإذاعة الخرساء للموسوعة الكبرى لإخوان الصفا، بوسعه أن يدعها «العصر الاسماعيلي» للإسلام: حينذاك كانت الدعاية المعنية بالجمعيات السرية القرمطية قد تسربت من الكوفة، بوصفها مركزاً ومحوراً، إلى كل أرجاء الإمبراطورية العباسية، فأحاطت ببغداد إحاطة السوار بالمعصم، وهناك عمليات إعدام «المتآمرين» القرامطة تتوالى، انطلاقاً من صلب الحلاج سنة ٣٠٩هـ. وها نحن أولاء مزودون الآن بوثائق عن القرامطة والاسماعيليين مستعينين بمؤلفيهم أنفسهم، وهذا مايسمح لنا بمتابعة ترشح أفكارهم وتسربها إلى الفكر العربي بأسره في تلك الحقبة.

سبق لأبي العلاء المعري أن وقف النقد الأدبي منه أمام الأمر الواقع: والذين وقفوا إلى قراءة كتاب المجالس الذي عثر عليه لأستاذه وصديقه المؤيد السلماني الشيرازي، الذي لم يكن سوى داعي الدعاة للاسماعيلية، ليعلم أن المرارة الشكية للزوميات ولرسالة الغفران لايمكن أن تعتبر بعد اليوم كشذوذ فردي، وإنما تؤكد على تفريخ الشك المنظم والسخرية الثورية المكظومين في التعاليم المبثوثة لدى جمعيات الفكر الاسماعيلية على صعيد نفسي مؤات ملائم.

والحالة نفسها بشأن المتنبي: فإن مؤرخ الأدب لم يعد بوسعه إهمال هذه المغامرة الخطرة الشابة التي اعتقل خلالها بوصفه نبياً مزيفاً متنبأ[1]: هذه المجازفة التي هون من أمرها ميتز بعد النهشلي، ولكن بلاشير ردّ ردّاً مناسبا جداً على هذا الموقف بمقاله في دائرة المعارف الإسلامية. وهذا التقويم من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي والديني هو الذي أريد أن أشدد عليه وأوسعه محتالاً عليه بجمع بعض الملاحظات تحت عنوانين رئيسيين:

١- المتنبي، المولود في الوسط اليماني الشيعي الكوفي، تشكل هناك وفي البادية، في جو قرمطي بصورة خاصة

٢- حين اندحر بوصفه ثائراً بدوياً، لم يطأطئ هذا القرمطي القديم رأسه بالتمام أبداً - ولم يتكيف تكيفاً كاملاً للشيعية المحافظة، شيعية أمراء سورية ومحسنيها الحمدانيين، فهذا البدوي لم يتحضر التحضر المطلوب في المدن. لقد وجد نفسه مضطراً على التكسب بقصائده، فتكسب بجرأة واندفاع ينمان دائماً عن سنخه البدوي، وعن مرارة ميتافيزيقية اسماعيلية كل الاسماعيلية.

الكوفة الوسط العائلي، والدور الراجح للكلابيين في الإنتفاضات القرمطية

في الصحراء

إن دراسة الأوساط الإجتماعية في الكوفة أياً كانت أهميتها لفهم القرون الثلاثة الأولى للإسلام العربي .. شرعت في إيتاء أكلها ولنلاحظ، بالنسبة للمتنبي، أن محلته المولدية كندة، كانت شيعية، وكان جعفياً من جهة قبيلة أبيه، عبدان السقا، الذي كان تعلقه مشهوراً بالأئمة. وأخيراً فإن جدته، العضو الوحي من أسرته الذي لم يأنف من ذكره، كانت بشهادة أحد العلويين -الذي هو مرجعنا الوحيد لهذه الفترة- «امرأة تقية ورعة» من قبيلة همدان، العشيرة الشيعية قلباً وقالباً، حيث النساء العربيات يجرؤن على البكاء على الحسين في السنة التالية لموته ذاتها. وإذا كان المتنبي، لبعض الأسباب، يتحدث قليلا عن ذويه، فإن يجاهر بالقول بأنه يماني ومن الكوفة[2]). وستجدون في خططنا الأحياء الأخرى التي ذكرها في أشعاره: البارق، السكون، الثوية.

---

(١) جاء في الصبح المنبي: قال أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل: قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاث مئة وهو فتى. فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته. فلما تمكن الإنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناما لمشاهدته واقتباسا من أدبه، قلت: والله إنك لرجل خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فقال: ويحك أتدري ماتقول؟ أنا نبي مرسل. فظننت أنه يمزح. ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته. فقلت له: ماتقول؟ فقال: أنا نبي مرسل كما ذكرت. فقلت: مرسل الى من؟ فقال: إلى هذه الأمة الضالة المضلة. قلت: ماذا تفعل؟ قال: أملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا. قلت بماذا؟ قال: بأدرار الأرزاق والثواب العاجل والآجل لمن أطاع وأتى وضرب الأعناق لمن عصى وأبى. فقلت له: إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه أن يظهر، وعذلته. فأنشد يقول بديها وذكر هذه الأبيات:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم

(٢) *قضاعة تعلم أني الفتى ... الذي ادخرت لظروف الزمان*
ومجدي يدل بني خندف ... على أن كل كريم يمان

وفي حرف الكوفة الصغرى (كحرفة السقاء) ظهرت الشيعية مبكراً بمظهر ثوري يدعو إلى المساواة : ثمة فرقة متطرفة، معروفة الآن أحسن من قبل، هي الخطابية، كانت قد نجحت في تأسيس حركة واسعة سرية الأهداف، قبل العام ١٣٨هـ، واتخذت من الكوفة مركزاً لها، فضمت إلى جانبها كافة بلدان الإسلام الكبرى، وذلك بفضل أصحاب الحرف: المؤامرة القرمطية، أو إذا شئنا، الإسماعيلية: التي شرعت منذ عام ٢٨٠ هـ بالعمل المباشر ،وبالتمرد، فاجتاحت الكوفة خمس مرات (في الأعوام ٢٩٣ . ٣١٣ . ٣١٥ . ٣١٩ . ٣٢٥ الهجرية). وباستنادها إلى دارين عسكريتين للهجرة، على جانبي بادية السماوة: الأولى غير بعيدة عن مشارف الكوفة (ويعلق موزيل Musil قائلاً: لعل ذلك قرب قصر الأخيضر الحالي) والأخرى غير نائية عن مشارف حمص، في منطقة السلمية (أي في الجبل الأعلى) ولنلاحظ الآن، أن الجانب الأخير من نصيب فخذ بني كلب، بني عدي، الذي بإدارته من قبل بني عليش بن ضمضم، كان قد نذر نفسه حتى الموت عام ٢٨٩هـ للعمل على ظفر السلالة الفاطمية بالسلطان، جاراً معه أقرباءه بني الأصبغ. وحين انهاروا عام ٢٩٥ هـ من جراء خمس سنوات من القمع الدامي، ولاذ بالفرار إلى إفريقية آخر من ظل من الرؤساء، وهو عبيد الله (الذي ولد سنة ٢٩٥هـ في السلمية) ثار هؤلاء من جديد عام ٣١٨هـ. وعلى هذا فإن هذا الفخذ نفسه من بني عدي (السلمية) الذي سيجر بني كلب إلى دعوة المتنبي، عام ٣٢٦هـ، تخفق راياتهم حتى اللاذقية. فنحن مرغمون إذا على التسليم بأن هذا الفتى اليافع قد أوصى به الزعماء الاسماعيليون خيراً، وكانوا قادة المؤامرة الفاطمية، لأسباب وجيهة، سواء كانت وشائج القربى أو الإنتساب المذهبي.

أما الشيعة الثوريون والمسوية كالقرامطة فإن الرباط الحقيقي العائلي كان الانتساب (النكاح الصحيح)، كان أبو الخطاب يلقب بأبي إسماعيل «والد الابن الأكبر للإمام جعفر» وبصورة معكوسة، حسب مذهب الدروز الباطني، الذي كان مذهب السلالة الفاطمية فإن هذه السلالة لم تنحدر إلا (روحياً من الإمام محمد بن إسماعيل، الذي كان مدرب جده «الجسدي»، عبد الله بن ميمون القداح، المتوفي في سجن الكوفة، زهاء عام ٢١٠هـ. وقد اكتسب المريد بعض الإلهام، أي الشعور اللاشخصي بأسرار العالم، الذي من هذه الدنيا أدخله في الحياة الأخرى، التي غبطتها، كما يرى القرامطة، من النسق الذهني اللامادي. ومن هنا الكبرياء الخاصة لهؤلاء المنورين التي لاأتردد بتشبيهها بالكبرياء التي استنكرها كافة النقاد في المتنبي، وإذا كان قد أثقلها، بادئ الأمر، بالكبرياء الفطرية العربية، وإذا كانت هي كبرياء الفنان المتطرفة، فإنها تفصح في صميمها عن يقين لا شخصي ومذهبي،هو يقين غنوصي،المعرفة المرة المتعالية لمريد من مريدي «نسبية الأديان» التي هي الكلمة الأخيرة للقرمطية، التي لم ينسها المتنبي، كما سنرى مصداق ذلك تالياً. وإلى جانب التظرفات الكلاسيكية (الإتهام بالسيمياء: خداع العامة بحيل بدوية يمانية: تسمح بتجنب المطر وترويض ناقة، إلخ) فإن المطاعن التي طعن بها المتنبي تزيح الستار عن متنسب إلى القرمطية: قال عن نفسه أول ما قال أنه علوي، أي القائم «الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» - ثم

ادعى أنه نبي مرسل معزز بقرآن جديد، ويعني هذا أن المتنبي شأنه شأن جميع السينوية والسلمانية نادى بتبني كل مريد من قبل روح النبي (وادعى هذا لنفسه)، وهذا يلغي في آن واحد الإمتياز الموروث للعلويين والكرامة الخاصة للرسول «البشير النذير» بالوحي القرآني.

والواقع أن المتنبي رغم أنه لم يخرج من السجن (٣٢٧هـ) الا بعد أن أمضى إستتابة، ومن هنا احتراسه من المواضيع الدينية في كل إنتاجه (لقد سكت حتى عن علي، وهذا ما لامه عليه حماته الحمدانيون الشيعيون المحافظون المتحمسون،على نقيض أبي فراس[٣]، وتنم بعض المغالاة الإرادية للإشادة بمستضيفه الحالي، نتبين افتقار ما يقوله إلى الاحتشام لبعض القيم.

الإسلام:

إن كان مثلك كان أو هو كائن *فبرئت حينئذ من الإسلام*

حواء:

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو *عقمت بمولد نسلها حواء*

موسى:

أو كان لج البحر مثل يمينه *ما انشق حتى جاز فيه موسى*

عيسى:

وكأنما عيسى بن مريم ذكره *وكأن عازر شخصه المقبور*

أو كان صادف رأس عازر سيفه *في يوم معركة لأعيا عيسى*

المهدي:

فإن لم يكن المهدي من بان هديه *فهذا والا فالهدى ذا فما المهدي؟*

هذه الأبيات تفضح مريداً قديماً، فالمسلم العادي يجهل اسم عازر، ولكن القرامطة حفظوه، ليجعلوه يلعب دوراً (انظر كتاب التعليم الدرزي -٨٧). وفي ثلاثة مقاطع، يتحدث المتنبي عن قرامطة البحرين. في إحداها، بخصوص مذبحة الحجاج، التي ملأت العالم الإسلامي رعباً وفزعاً، وسنلاحظ اللهجة المعتدلة للومهم، واستعمال الكلمات الدقيقة (اسم الشيخ لزعيمهم[٤]، وكلمة النافلة التي تحل محل كلمة فريضة، موصوفاً وصفاً دقيقاً)، والمقطع الآخر يمتدح شجاعتهم كما هو ظاهر، والمقطع الثالث يتناول فائزهم، وهو أكثر المقاطع اقتضاباً. وأن مفردات المتنبي رغم تسلسها الكلاسيكي الجميل. تتضمن بعض المصطلحات المألوفة لدى الإسماعيليين: تتضمن تعبيرين من تعابير إخوان الصفا (= قدس الله روحه، الفلك الدوار)، و(كلمة الثقلين = القرآن والعترة، وليس الجنة والناس) ولعل هناك ثلاثة وأربعة مصطلحات أخرى، ولم يوجه

---

(٣) ولما عوتب المتنبي على تركه مديح آل البيت، سيما أمير المؤمنين علي، فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمدا *إذ كان نوراً مستطيلا شاملا*

وإذا استطال الشيء قام بنفسه *وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا*

(٤) *شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة* *ويستحل دم الحجاج في الحرم*

المفسرون تطلعاتهم إلى هذه الجهة، حيث يوجد ماهو جديد يعثر عليه.

وهكذا فإن المتنبي حين يصرح أنه لاينبغي وضع الشمس (المؤنثة) تحت الهلال (المذكر) فإنه ينوي، في الحقيقة، حسم المعركة القديمة بين شيعة الكوفةحول أولوية الميم (محمد= الشمس) أو العين (علي= القمر)، في علم التنجيم الشيعي، الشمس= محمداً، القمر= علياً، الزهراء= فاطمة، والفرقدان= الحسن والحسين، وذلك باتجاه ميميات القرامطة[٥].

وأخيراً فإن البهلة أو اللعنة في مطلع قصيدته:

أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود

يذكرنا باسم إلهي غريب، لايوجد إلا في الطنجية لغلاة الشيعة: «مخدد الخدود- ربما الأخدود» (مخطوطة باريس ٥١٨٨ ف٩٤، وهذه الخطبة سابقة على عام ٣٠٠هـ، طالما آن الصولي قد أتهم الحلاج بانتحاله مقطعاً آخر: «أنا مهلك عاد وثمود»: تاريخ ريب٩١).

الثقافة الحضرية في سورية الحمدانية

يقال أن المتنبي أنجر إلى الأوساط الحضرية السورية بفعل صداقاته البدوية (والقرمطية)، فانغمر في مدن ظل الشيعيون لهم القدح المعلى فيها حتى الحروب الصليبية، كاللاذقية وأنطاكية وحلب وطبرية. وحين خرج من السجن، معاهداً نفسه على أن لايثور مطلقاً كان طبيعياً أن يوطد علاقاته بهؤلاء الشيعة المحافظين، الذين كانت تنسجم أمانيهم المشروعة المشبعة بالأفلاطونية مع التعويضات الدسمة وخدمة السلالة السنية للعباسيين، وفضلاً عن ذلك كان هؤلاء الأدباء والأمراء على جانب عظيم من الثقافة، مشغوفين بالعلم الهليني، وبصورة خاصة كانوا من عشاق المنطق (سيستقبل الفارابي لديهم خير استقبال)، وعلى هذا فإن مايؤكد لنا بصورة حسنة على أن ضرورة الحياة- وليس سلوك سبيل التشبع العميق بالآراء- كانت علّة إقامة المتنبي في هذه الأوساط الأدبية منذ٣٢٨هـ (في مدينة طبرية)، وعلى الأخص بعد عام٣٣٧هـ (في أنطاكية وحلب، وتابعتها معرة النعمان)، ذلك لأن أفقه الفكري لم يتسع بصورة محسوسة، وأنه لم يتكيف قط. وفي الصراع الدائر بين النحو التقليدي والمناطقة على الطريقة الإغريقية، ظل نحوياً من مدرسة الكوفة. صحيح أنه حاول ذكر اسم أبوقراط وجالينوس[٦]، ووضع في مستهل إحدى قصائده بيتاً أرثماطيقيا عجيبا للغاية:

أحاد في سداس في آحاد ليلتنا المنوطة بالتنادي

١+٦=٧

ولكن هذه المحاولات تثبت بوضوح أن القضية ليست سوى اتجاه ضعيف، والحاتمي اشتط

(٥) *وما التأنيث لأسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال*

(٦) *كأنه من علمه بالمقتل علم بقراط فصاد الأكحل*
يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه

كل الاشتطاط حين حاول مقارنة كلمة بكلمة لإقامة الدليل على وجود الصلة بين أبيات المتنبي الحكمية والحكم المنسوب إلى أرسطوواليس[٧].

وأن حكم المتنبي ليست من الفلسفة الهلينية في شيء: لم يرغب في تعلمها ببلاط الحمدانيين. وقلما تذوق رقي هذه الحياة المترفة وسعتها، بما فيها من حسن ودمامة وخير وشر. وإذا كان استقلاله العبوس يأبى السجود للأمير، فإنه لايرى في الحرب الضروس ضد الامبراطورية البيزنطية إلا ملاحم وغزوات ومبارزات، وإذا كان يهمل علماء البلاط، فلن يحني هامته أبداً، ولن يغدوطفلياً مدجناً، بل سيقطع صلته بالأمراء من غير تردد، ويقتل نفسه نتيجة أهجية، تماما كما كان يصنع الشاعر في الجاهلية. ومع ذلك ستكون لديناتائج نحصل عليها من الغربلة الشاملة لأسماء الذين أهدى إليهم قصائده، لأننا بفضل أمدروز Amedroz ومركليوث Margliouth ومزيك Mazik وهيورث دني Heyworth Dunne، نملك الآن شذرات لطبعات تاريخية تختص بتلك الفترة، مع مسارد وفيرة بأسماء الأعلام. وسنجد- كما أعتقد- أن كافة ممدوحي المتنبي تقريباً كانوا من الشيعة، باستثناء قاض مالكي. وكاتب غني عجيب، معتزلي بعض الاعتزال، وأعني به هرون الأوارجي الذي حرر عام٣٠٨هـ البيان الذي أطلق محاكمة الحلاج من عقالها نهائياً، ولانعثر على أي أشعري أو أي حنبلي (لم يكن لهم آن ذاك شأن يذكر).

وفي البيئة ذاتها سيحيى المتنبي خارج سورية، وفي القاهرة يجد- إلى جانب كافور- ابن الفرات (القرمطي سراً)، وفي العراق يلقي الوزير المهلبي وفي فارس يلقى خلال سنتيه الأخيرتين (٣٥٣-٣٥٤هـ) وزراء بويهيين آخرين. ولنلاحظ أنه إذا كان قد زار في شمال شيراز شعب بوان الرائع الذي لمحته في الأفق عام١٩٣٠ أثناء رحيلي إلى البيضاء، فقد أروه صوب الجنوب «شعب أشجار اللوز، دشت الأرزن، المشهور لدى الشيعة بأنه موطن سلمان الفارسي.

ولنعد إلى فن المتنبي الشعري من وجهة النظر الثقافية. أن الوضوح الغريب الذي تتمتع به لديه الصور يلوح لي كذلك أنه من فاعلية أسلافه القرامطة. فهذا شاعر البلاط المزعوم يرفض أن يتغنى بالخمرة، ولايصف الجمال الحسي للأجسام، ولايدع لنفسه مجال الاختيار، لتوبلة موائد المتهتكين، بسلوك مدح الزهد الذي يعوزه الإخلاص مع التغزل بالمذكر المزعومة أفلاطونيته. صحيح أنه تبرئة لذمته يلجأ إلى تنويع مبالغاته في المديح، ولكن مايمنحه قبل كل شيء لسامعيه، إنما هو مشهد تفكيره الخاص: التفكير الخالص، في حالة الهياج الوحشي ضد ثقل المادة البسيط، ضد ماسماه إخوان الصفا «الحكام الخمسة» الذي يضم: السماء التي جعلت الليل والنهار خلفة، والفصول، الطبيعية التي تحملنا مشقة الحر والبرد والشوق والحسرة، الشرع الذي يخضع لحكم الطقوس، أو يؤدي إلى العقوبات الجزائية، الدولة ذات المرافق والتسخيرات المهنية، ضرورة الطعام والشراب واللباس والسكن والعمل بالآلات:

---

(٧) الرسالة الحاتمية، لابن مظفر، طبعة الجوائب، ١٣٠٢هـ.

نحن بنو الموت فمابالنا ... نعاف مالابد من شربه
إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
حتام نحن نساري النجم في الظلم ... وماسراه على خف ولاقدم
بم التعلل لاأهل ولاوطن ... ولانديم ولاكأس ولاسكن
أجد الحزن فيك حفظاً وعقلاً ... وأراه في الخلق ذعراً وجهلاً

ولايتحدث عن الحب إلا كقيد مفروض، فهو مرض الفكر الذي يجهد نفسه في سبر غور آليته ليقنع نفسه ببطلانه:

لهوى النفوس سريرة لاتعلم ... عرضاً نظرت وخلت أني أسلم

أو كما يقول الحلاج:

الحب مادام مكتوماً على خطر ... وغاية الأمن فيه غاية الحذر
وأطيب الحب مانم الحديث به ... كالنار لاتأت نفعاً وهي في الحجر
من بعد ما حضر السجان واجتمع ... الأعوان واختلط اسمي صاحب الخبر
أرجو لنفسي براء من محبتكم ... إذا تبرأت من سمعي ومن بصري

والمتنبي يخلع اسما لفكره على هذا الموقف المرير المكافح: أنها الفتوة:

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

وهنا أيضاً نجد أنفسنا حيال كلمة ذات مذاق شيعي متطرف. ففي القرن الثاني، الفتى هو المتآمر الشيعي، الذي نذر نفسه للقتل، فهو يتخذ موقفاً ذا أناقة استفزازية. والفتوة لدى المتنبي هي شرف الرجل الذي يرى أن فكره، بكل أهوائه، هو الشيء الوحيد المعتبر، وخطر الموت تجاهه لاقيمة له، وكذلك القرامطة، الذين قال عنهم مؤرخ الهرطقة المعاصر أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي في كتابه «التنبيه والرد على أهل البدع والأهواء»: وهم في الحرب لايدبرون حتى يقتلوا، ويقولون أن حياة بعد القتل أو الموت أفضل، لأنا نخلص أرواحنا من قذر الأبدان وشهواتنا ونلحق بالنور».

الخلاصة

أن الملاحظات السالفة نجمت عن الخواطر التي أوحتها إلي شيئاً فشيئاً قصائده المعروفة يقيناً بل المعروفة في كافة أرجاء العالم العربي: التي أشعرني بها منذ سنوات عديدية صديقي الحاج علي الألوسي، الذي نحن مدينون له بصورة مباشرة بنشر كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» للجرجاني.. نعم أشعر في أثناء حملة ربيعية في بادية السماوة بديمومتها الأبدية.

وإني لاأزعم مطلقاً إرادة تذوق الافتنان البارع في شعر المتنبي، ولكن أتبين أن تنقيبه عن الكلمة النادرة غير مدين به لحرص مبتذل على القافية السرية، ولكنه يهدف إلى النسيج الباطني للبيت: وفي إحدى القصائد، لم أتوقف إلا عند بعض الأبيات المتفردة، بغية التفكير والتأمل، وفي مطالع القصائد بصورة خاصة، وهي ضربات عزاف ماهر، ترسم يد الأستاذ على الدوام نفس حركات الفكر البتارة. والمتنبي يهاجمنا بدفعه التوازي السامي القديم إلى حد الاقتضاب والبلاغة، وهذا الأمر يحمل كذلك علامة على أصوله القرمطية، طابع التبريز المرير، المستعلي الجارح- بارتطام الألفاظ، هذا الارتطام الذي بفضل تقنية متسلطة متماسكة يحدث اصطداماً بين فكرين متناقضين، أنها أفكار أكثر من كونها صوراً، وأحياناً من الشطر الأول:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب — وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

نرى عظماً بالبين والصد أعظم — ونتهم الواشين والدمع منهم

وأبعد بعدنا بعد التداني — وأقرب قربنا قرب البعاد

لعينيك مايلقى الفؤاد ومالقي — وللحب مالم يبق مني ومابقي

وختاماً، قصيدة «لك يامنازل» الرائعة:

لك يامنازل في القلوب منازل — أقفرت أنت وهن منك أواهل

يعلمن ذاك وماعلمت وإنما — أولا كما يبكي عليه العاقل

لقد أكد باسكال في إحدى خواطره الفكرة المقلوبة أو المعكوسة: «لايكون الإنسان شقيا بدون شعور، البيت الخراب لايكونه، الإنسان وحده هو البائس».

التناقض بين باسكال والمتنبي آت من أن باسكال المسيحي يؤمن بحضور الاصطفاء الإلهي، المخصص لبعض الكائنات التي زارتها رحمة الله وتجلت فيها، في حين أن المتنبي المسلم يأبى إيثار أي مخلوق بامتياز استثنائي، والأكثر من ذلك، أنه كان قرمطياً، ففي رأيه أن الخلق ليس سوى غشاء وهمي يحجب بقناعة نفسه الفكر الصافي، ومع ذلك فبقية من إنسانية تجعله يبكي أمام هذه الأحجار: على غياب كل فكر عنها، على هذا النقص، على هذا العدم، الذي هو أسوأ من اللعنة.